العرب النصارى*

(حسين العودات)

مراجعة عمر كيلاني

في كتابه «العرب النصارى» يتناول المؤلف حسين العودات مواقف الأنظمة السياسية والاجتماعية في البلدان العربية تجاه العرب النصارى منذ ما قبل الإسلام حتى مطلع القرن العشرين وذلك في ستة فصول وأحد عشر ملحقاً توزعت على 240 صفحة من القطع المتوسط. وقد لوحظ أن الملاحق أو بتعبير أدق الوثائق قد جاءت من مرحلة تاريخية واحدة هي مرحلة صدر الإسلام، وتحمل العناوين التالية: فيمن تجب عليه الجزية، الرفق بأهل الذمة، الكنائس والبيع والصلبان، قصة أهالي نجران، الصلح مع نصارى بني تغلب، الصلح مع أهالي بصرى، الصلح مع أهالي دمشق، الصلح مع أهالي بعلبك، الصلح مع أهالي القدس، الصلح مع أهالي مصر، الصلح مع أهالي الحبرة. أما فصول الكتاب فقد حملت العناوين التالية: العرب النصارى قبل الإسلام، ظهور الإسلام وعصر الخلفاء الراشدين، الأمويون والعباسيون والفاطميون، الغزو الفرنجي، الدولة العثمانية، عصر التنوير والنهضة.

وفي تقديمه للكتاب يؤكد المؤلف أن العرب أطلقوا كلمة النصارى (نسبة إلى مدينة الناصرة) على المسيحيين العرب حتى بداية العهد العثماني، ويوضح أن المظالم التي كانت تطال النصارى من بعض المتنفذين كانت تطال بالدرجة نفسها المسلمين من الفئات الدنيا مؤكداً أن أسبابها اجتماعية واقتصادية وسياسية وليست دينية.

---

* حسين العودات: العرب النصارى، الطبعة الأولى. دمشق 1992.

ويتحدث في الفصل الأول عن العرب قبل الإسلام ودياناتهم: الوثنية واليهودية والحنيفية وعن النصرانية وفرقها: الأريوسية والنساطرة والمونوفيسية ويقول أن النصرانية انتشرت في بلاد العرب قبل الإسلام انتشاراً كبيراً. ولكن كان النصارى أفراداً في قبيلة أو مجموعة منها ونادراً ما كانت القبيلة بكاملها على النصرانية. وقد تفاوت تنصر العرب بين منطقة وأخرى، فقد كان تنصرهم كثيفاً نسبياً في نجران والحيرة وغسان وبادية الشام وشمال سورية بينما كان فردياً تقريباً في الحجاز. وغالباً ما أقلمت القبائل العربية النصرانية وطبعتها بطابعها وأخضعتها لظروفها. ويؤكد المؤلف أن النصارى العرب كانوا معادين للدولتين الفارسية والبيزنطية (رغم مسيحيتها) قبل الإسلام مما مهد الطريق للفتوحات العربية الإسلامية وجعل سكان هذه المناطق ينظرون للمسلمين كمخلصين لهم من ظلم هاتين الأمبراطوريتين.

أما الفصل الثاني فيخصصه المؤلف للحديث عن النصارى مع ظهور الإسلام وعصر الخلفاء الراشدين مؤكداً في مقدمته أن الدين حينذاك كان الأيديولوجيا والفلسفة والشعار لدول ذلك العصر وما كان بإمكان أمة أو مجتمع أو شعب النجاح بدون تبني عقيدة دينية متكاملة ذات فهم شامل للكون والحياة، ولم يكن أمام العرب المسلمين بد من نشر الإسلام لأن بناء دولتهم مرتبط بانتشاره وأن يلزموا الناس على الدخول في الدين الإسلامي أو مهادنته على الأقل. أما بالنسبة لأهل الكتاب (اليهود والنصارى) فقد خيروهم بين الدخول في الإسلام أو دفع الجزية والبقاء على دينهم. وكان موقف القرآن الكريم بشكل عام إيجابياً من المسيحيين من الناحيتين السياسية والسلوكية. وكان المسلمون يعتبرون أصحاب الكتاب أهل ذمة، وعقد الذمة هو عقد بين المسلمين أو الدولة الإسلامية وبين فئة من المجتمع كتابية حددت بموجبه الحقوق والواجبات لكل من الطرفين: أي حقوق الدولة على أهل الكتاب باعتبارهم جماعة منها وحقوقهم على الدولة باعتبارها دولتهم. ويعتبر غير المسلم بمقتضى هذا العقد في ذمة المسلمين أي في عهدهم وأمانهم على وجه التأبيد، ويسري هذا العقد على الأبناء والأحفاد ما لم يفسخوه ولا يحق للمسلمين أو لدولتهم فسخه. أما إن فسخه ذمي فرد فلا تقع المسؤولية على

طائفته بل عليه شخصياً. والسبب الوحيد القاطع لفسخه من قبل الدولة الإسلامية هو تعاون الذمي مع العدو. ويدفع أهل الذمة بموجب العقد جزيةً تقع على كل فرد باستثناء النساء والأطفال والرقيق والرهبان والعميان غير القادرين. وقد كانت الحقوق والواجبات واضحة في عقود الذمة التي عقدها الرسول والخلفاء الراشدون إلا أن باب الاجتهاد ورغبة الحكام وحاجة خزينة الدولة إلى الأموال وضعف الدولة فيما بعد أدى إلى سوء استغلال الجزية وإلى الإخلال بعقود الذمة.

وبعد أن يستعرض عقود الرسول وخاصة عقده مع أهل نجران، وعقود الخلفاء مثل العقد مع أهالي دمشق يؤكد المؤلف أن الخليفة عمر بن الخطاب كان يسعى جاهداً ليتحول النصارى العرب إلى مسلمين، لأن العرب هم حاملو شعلة الإسلام المكلفين بنشره وبناء الدولة العربية الإسلامية، ولم يترك فرصة إلا واستخدمها ليتحول نصارى العرب إلى الدين الجديد في إطار أساسيات الموقف الإسلامي والأسلوب الإسلامي في التعامل مع أهل الكتاب. ومن ذلك أن عمر اشترط على نصارى بني تغلب أن لا ينصّروا أولادهم. ويتحدث المؤلف من ثم عن احترام الإسلام لحرية الفكر والمعتقد لأهل الكتاب ومحافظته على أملاكهم وحقهم في التنقل والعمل، مختتماً هذا الفصل برأي للدكتور أدمون رباط جاء فيه أن «تلك الجماهير الكثيفة التي تشكل أغلبية أهالي سوريا ومصر والعراق إنما كانت تدين بالمسيحية، وقد اعتنقت الإسلام بأفواج متلاحقة منذ القرن الأول من الهجرة، بملء حريتها في حين أن من بقي من هؤلاء النصارى موزعين إلى طوائفهم المعروفة بتسمياتها المختلفة إنما هم شهود عدل عبر التاريخ ليس على سماحة الإسلام، وهو تعبير لا يفي بالواقع لأن وجودهم كأهل ذمة في الماضي كان مبنياً على قاعدة شرعية وليس على شعور من طبيعته أن يتضاعف أو يضعف، وإنما على إنسانية هذا الدين العربي الذي جاء في القرآن. وهو الذي أقر لغير المسلمين ليس فقط بحقوقهم الفردية والجماعية الكاملة بل وأيضاً بالمواطنية الشاملة».

وفي الفصل الثالث يتحدث المؤلف عن معاملة الأمويين والعباسيين

والفاطميين للنصارى مؤكداً في بدايته أن الدولة العربية ـ الإسلامية غدت منذ عصر الأمويين امبراطورية واسعة الأطراف لها المواصفات الكاملة لامبراطوريات ذلك الزمان من حيث هيكلية الدولة وتعدد شعوبها وثقافتهم وأديانهم، وكان المسلمون أقلية في المراحل الأولى للفتح العربي ـ الإسلامي وبدء قيام الدولة الأموية لأن سكان سورية والعراق من العرب وغير العرب لم يكونوا قد دخلوا الإسلام بعد. والأمر نفسه في بقية البلدان المفتوحة. ولم تكن العربية مستعملة في البدء إلا من قبل الحكام والمجموعات العربية. ورغم التعقيد والتنوع لم تخرج الدولة الأموية والعباسية عن الإطار العام الديني والفلسفي الذي تقرر في فجر الإسلام. وكان موقف الدولة من النصارى في أحيان عديدة رد فعل على فعل خارجي كما حصل أيام هارون الرشيد عندما غضبت الدولة على نصارى بغداد لأن البيزنطيين احتلوا بعض مدن الثغور. ويؤكد المؤلف أن عدد النصارى العرب تناقص مع رسوخ أقدام الدولة العربية ـ الإسلامية بسبب تحول قسم كبير منهم إلى الدين الجديد إيماناً به أو طمعاً بالمشاركة في السلطة أو تخلصاً من مضايقات كانت تمارس عليهم. إلا أنه بقي للنصارى العرب وضع مميز ومختلف طوال العصر الأموي وحتى نهاية القرن الثاني الهجري، وبعد هذا القرن استعرب النصارى غير العرب وشاركت الشعوب الأخرى. وبعد استعراضه للمظالم الرئيسية الثلاثة التي وقعت على النصارى أيام الدولة الأموية والعباسية والفاطمية (أي خلال أربعة عقود) ذلك أيام الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز والعباسي المتوكل والفاطمي الحاكم بأمر الله، والتي نجمت عن إرادة الخليفة وليس عن موقف ديني. يؤكد المؤلف أن عهد الذمة بقي محترماً طوال عهود الدول الثلاثة وقد لعب النصارى دوراً هاماً في الحركة الثقافية والعلمية والفنية طوال هذه القرون الأربعة.

ويخصص المؤلف الفصل الرابع للحديث عن النصارى العرب في زمن الغزو الصليبي بعد أن يعرض لأحوال البلدان العربية والأوروبية قبيل هذا الغزو ومن ثم حدوثه ومجرياته بدءًا من احتلال الصليبيين لأنطاكية والقدس وحتى قيام الدولة الأيوبية وبدء التحرير. ويقول إن النصارى العرب تصرفوا كما تصرف المسلمون خلال الوجود الصليبي. وقد تعاون بعضهم مع الصليبيين كما تعاون مسلمون،

وقاومت أكثريتهم الدويلات الصليبية وجيوشها وخاصة خلال حروب الاستعادة بعد أن اتضحت أهداف الصليبيين كغزاة أجانب جاءوا للاحتلال والنهب والتدمير. ويخلص إلى أن الغزو الصليبي أوقع المسيحيين العرب في حرج شديد، ألطف ما يقال فيه أنه خيّرهم بين الوقوف مع بني دينهم أو الوقوف مع بني قومهم. ويبدو أن المسيحيين العَرب في معظمهم اختاروا الحل الثاني، فكان المسعى الصليبي وبالاً على المسيحية العربية من حيث ظن أو صور أنه دفاع عنهم.

في الفصل الخامس يتحدث المؤلف عن النصارى في زمن الدولة العثمانية من خلال نظام الملة العثماني ونظام الامتيازات الأوروبي، موضحاً أن نظام الملة لم يكن تقسيماً طائفياً يهدف إلى استصغار طائفة أو عدم الاعتراف بحقوقها بل كان يهدف لتثبيت حقوق الطوائف وواجباتها وإيجاد توازن بينها إلا أن هذا النظام ما لبث أن تحول بعد التدخل الأوروبي ونظام الامتيازات إلى نظام أقليات قومية ودول داخل الدول مما أرسى الحجر الأول في المشكلة الطائفية في المشرق العربي. وقد ألغي نظام الملة عام 1839 حين أصدر السلطان عبد المجيد ما عرف بخط شريف كولخانه الذي أدخل على التشريع الإسلامي تغييراً جذرياً بإعلانه المساواة بين جميع رعايا الأمبراطورية مسلمين وغير مسلمين، وأكد الخط الهمايوني من ثم تلك الإصلاحات ووسعها وفتح باب الوظائف العامة والمدارس المدنية والعسكرية أمام الجميع كما أفسح في المجال أمام الأجانب لشراء العقارات، وجاء دستور عام 1876 من بعده ليشكل الإصلاح العثماني الأهم في القرن التاسع عشر. فقد أكد هذا الدستور أن جميع رعايا السلطنة هم عثمانيون أياً كان الدين الذي يعتنقون وأنهم متساوون أمام القانون ولهم الحقوق ذاتها ويتولون الوظائف بصرف النظر عن دينهم.

أما الفصل السادس والأخير فقد خصصه المؤلف لعصر النهضة: مقدماتها وبداياتها وروادها: رفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي وبطرس البستاني وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي. والنهضويون السوريون: ناصيف اليازجي وفرانسيس مراش وأديب إسحق وابراهيم اليازجي وجميل

معلوف وفرح أنطون، مؤكداً أن النهضويين العرب في سورية مارسوا نشاطهم من خلال الجمعيات التي أسسوها والتي كانت في الواقع أحزاباً بأسماء جمعيات وكانت أهدافها الحقيقية سياسية وقومية وتنويرية بالدرجة الأولى، وضمت بين أعضائها مسلمين ومسيحيين دون تفريق. وما لبثت الدعوة القومية أن أصبحت أساساً أيديولوجياً وسياسياً لمعظم التيارات السياسية والفكرية العربية منذ مطلع القرن العشرين. وقد ضمت هذه التيارات بدورها عرباً مسلمين ومسيحيين واجهوا معاً سلطة الدولة العثمانية ثم الغزو الاستعماري الأوروبي وقد تبلورت فيما بعد وتحولت إلى أحزاب سياسية ما زال معظمها قائماً بشكلٍ أو بآخر حتى عصرنا الحاضر.